مقاربة نفسية-اجتماعية مقارنة لأساطير الزواج عند المرأة المغاربية

كريمة علاق
karima_rimaallegue@yahoo.fr
كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة مستغانم- الجزائر

ملخص
فحصت هذه الدراسة أساطير الزواج عند المرأة المغاربية، وتحديدا أسطورتين للزواج معروفتين في الجزائر والمغرب وهما: أسطورة "الكسابة" بمنطقة مستغانم بالجزائر، وأسطورة "لالّة عائشة البحرية" بمنطقة أزمور بالمغرب اللتين أصبحتا طقسين من طقوس جلب الحظ والزواج عند المرأة العانس أو من تأخر زواجها. وقد استخدم المنهج الوصفي المقارن، وتحليل المضمون كأداة لدراسة الأسطورتين وطقوسهما، ثم المقارنة بينهما وتحديد أوجه الشبه والاختلاف بينهما. وكشفت النتائج عن تأثير معتقد حل أمور تأخر الزواج في العقلية المغاربية، مع وجود تشابه كبير بين هدف هذين الطقسين وهو تحقيق مكانة المرأة في المجتمع، وفي إجراءات الطقسين وتطبيقاتهما، وإن وجدت بعض الاختلافات البسيطة. وبذلك، يعد الطقسان من الحلول الاجتماعية التي ابتكرتها المرأة لتبرير عنوستها أو تأخرها زواجها.

الكلمات المفتاحية: أساطير الزواج، المرأة المغاربية، الكسَّابة، لالَّة عائشة البحرية.

A Comparative psychosocial approach to the legends of marriage among Maghreb's women

Karima Allegue
karima_rimaallegue@yahoo.fr
Faculty of Social and Human Sciences, University of Mostaganem- Algeria

Abstract
This study examined marriage myths among Maghreb's women; specially two well-known myths in Algeria and Morocco; the myth of « Kessabah» in the region of Mostaganem in Algeria, and the myth of «Lala Aïcha Al- Bahriah» in Azmour in Morocco. The two myths become rituals of bringing luck and marriage to the spinster women or who are late in marriage. We used the comparative psychosocial approach and the content analysis in the exploration of the two marriage myths and their rituals; which permit us to compare them with each other, and determine similarities and differences between them.

The results revealed the impact of the belief in resolving the delay of marriage in the Maghreb's mentality, in addition to a great similarity between the goal of the two rituals. Although there were some simple differences.

So, the rituals are social solutions invented by women to justify their spinsterhood or late marriage.

Keywords: legends of marriage; Maghreb women; Kessabah; Lala Aïch Al-Bahriah.

مقدمة

تندرج الأسطورة كعنصر من عناصر الثقافة الشعبية ضمن الفنون الشعبية والشفوية بصفة متميزة، لأنها تنتقل من وسط اجتماعي إلى آخر، عن طريق الذاكرة الجماعية لتشكل جزءا من الثقافة العامة التي تعبر عن المجتمع وبنيته أكثر من غيرها من الأشكال، لما تحويه من معتقدات وحوادث قريبة من حياة الأفراد، فهي تعتبر فكرا بشريا مرت عبره بمراحل مختلفة في تشكيله واستنبطت من كل التأملات والتخمينات التي نشأت من العقل الإنساني عبر العصور تماشيا بطبيعة الحال مع وسائل العمل في كل فترة.

ومن الطبيعي أن تختلف العادات والتقاليد باختلاف المناطق والبيئات، فيختلف الشرق عن الغرب والشمال عن الجنوب، غير أنهم يتفقون كثيرا في المعتقدات.

وتعد "المعتقدات والخرافات الشعبية منفذاً من المنافذ الأساسية لدراسة عقلية الشعوب، ومدخلاً مهماً من أجل اقتحام فضاءاتها العقائدية والفكرية وممارساتها الطقوسية الباطنية والمختلفة منها والظاهرة الجلية، فهي تترجم أيضاً مستويات التفكير الشعبي وحركيّته داخل فضاءات مادية وروحية خاصة" (سعيدي، 1995، ص. 76).

وجاء في قاموس مصطلحات الإثنولوجيا والفلكلور أن العادات الشعبية "هي أساليب الشعب وعاداته، بمعنى القواعد المستترة للسلوك، التي يؤدي خرقها إلى الصدام مع ما يتوقعه رأي الجماعة (هولتكرانس، 1973، ص. 246)، وتدخل هذه العادات الشعبية فيما يسمى أيضا بالتراث الشعبي وهي كلها مفاهيم تندرج تحت علم الأنثروبولوجيا والإثنولوجيا.

ويشير اسم التراث الشعبي حسب عبد الهادي (2001) إلى أننا نتناول هنا تراثا شفهيا ينتقل من جيل إلى جيل داخل الشعب، كما يتضمن أيضا "اعتقادات متنوعة منها الاعتقاد بالكائنات العلوية والسفلية كالجن والعفاريت والهواتف وأرواح الموتى وأرواح الأشياء وكيفية تفاعلها مع الإنسان حلولاً به أو خروجاً منه" (عبد الغني، د.ت، ص. 11).

أصبحت المعتقدات الشعبية على رأي نجلاء خليل (2006) "موروثات احتلت عقول الناس وشغلت حياتهم، وشغفت بها نفوسهم وملكت قلوبهم، وأضحى التسليم بها والخضوع لحكمها، من المسلمات والبديهيات التي لا يمكن أن يرقى إليها الشك، وقد أخذت هذه المعتقدات سبيلها إلى قلوب الناس ونفوسهم، عامتهم وخاصتهم، منذ بداية عمرها الطويل، في تعاقب الأجيال وتداول الأزمنة حتى رسخت في الوعي وأصبحت جزءاً هاماً من الوجدان الشعبي (عبد العظيم، 2013) إلى درجة أن الشخص المعتقد قد" لا يعرف نسق الاعتقاد كله، بل يعرف فقط قشوراً من عنصر بسيط منه، وعليه أن يلتزم به، سواء كان على علم به أو دون علم" كما ذكر ذلك علي المكاوي (1982، في عبد العظيم، 2013).

وارتبطت المعتقدات في أغلب الأحيان حسب عبد الباقي (1981) بالمرأة والرجل كطرفين أساسيين وفعّالين في المجتمع إلى درجة أن أصبح الزواج كل شيء بالنسبة للمرأة، واعتبر شيئا رئيسيا بالنسبة للرجل، كما صار من المشكلات الرئيسية التي تصل حد الهوس عند البعض من النساء، حيث يؤكد تحليل هذا النوع من المشكلات أن المرأة المغاربية تماما كما المرأة العربية مازالت محصورة في الأدوار التقليدية، وهي التي لها الغلبة، فدور الزوجة هو الدور الأول في حياة المرأة، وهو دور تُعَدُّ له منذ أن كانت طفلة صغيرة (علاق، 2017). فعملية التنشئة الاجتماعية التي تحيط بالفتاة المغاربية، هي من أهم العمليات تأثيراً عليها في مختلف مراحلها العمرية، لما لها من دور أساسي في تشكيل شخصيتها وتكاملها، وهي تعد إحدى عمليات التعلم التي عن طريقها تكتسب الفتاة العادات والتقاليد والاتجاهات والقيم السائدة في بيئتها الاجتماعية التي تعيش فيها؛ كما تحظى الفتاة بتربية مختلفة عن تلك التي يحظى بها أخوها الذكر، حيث تحاط منذ أن تكون طفلة بنوع من الاهتمام، وتلعب المرأة (الأم) دورا هاما في التنشئة الاجتماعية داخل الأسرة حيث تعتبر بمثابة الحارس للقيم والتقاليد الاجتماعية، ويتمثل دورها في عملية الاستنساخ الثقافي (الحاج، 2011).

ويعد الزواج في المجتمعات العربية تحديدا "سترة " للفتاة وحفظا لكرامة أسرتها، ومن ثم فإن تقدمها في السن دون زواج قد يثير العديد من الأقاويل التي تمس سمعة الفتاة وسمعة الأسرة، فتشعر بالدونية وبأنها

أقل من الأخريات، وبخاصة عندما تصرخ بداخلها نداءات الأنوثة والأمومة، وهو ما قد يدخلها في دوامات من القلق والاكتئاب واليأس والتشاؤم من الحياة (غياث، 2016، ص. 212).

كما يعد أيضا" مدخلا ضروريا لا غنى عنه لبناء الحياة الأسرية إذ هو الإطار الشرعي والقانوني والاجتماعي لها، ومن خلاله تتحدد المسؤوليات والحقوق والواجبات، فلا يمكن لأي رابطة عارضة بين رجل وامرأة أن تسمو إلى قداسة **الزواج**، مادامت هذه العلاقة لم تخضع لمبادئ وقوانين المجتمع ولهذا يعد الزواج الوسيلة الوحيدة التي تنظم حياة الجماعة وتحفظ النوع الإنساني ولهذا نجد كل المجتمعات تضفي على هذه العلاقة (الزواج) مظهرا وقداسة تفوق كل التصورات وذلك لما له من أهمية بالغة في حياة الفرد ذكرا كان أم أنثى، من خلال إجراءات وطقوس ومراسيم الاحتفال للإعلان عن الزواج والإشهار عنه أمام أفراد المجتمع (شرقي، 2017، ص. 22-23).

وكثيرا ما تحلم الفتاة في ظل هذا الوضع بالزواج الذي يتحول رسوخه في ذهنها عبر الزمن من فكرة إلى معتقد،"وبأنه هو الحل لوضعيتها، ووسيلة لإبراز شخصيتها، فالمرأة التي تتزوج في تقاليد الأسرة [المغاربية]هي الأوفر حظاً للحصول على منزلة أفضل في نظر عائلتها وجيرانها، بل تحسد من طرف قريناتها على هذا الوضع، لذلك أضحت المرأة العانس وصمة عار في الأسرة والمجتمع، وهي عرضة لمختلف الاتهامات، حتى أضحى يصطلح على تسمية "بَايْرَة" كل فتاة تجاوزت سناً معينا دون زواج" (الحاج، 2011)، مما يدخلها في قلق داخلي وتوتر خارجي في وسطها العائلي ومحيطها الاجتماعي عند بلوغها السن المتعارف عليه للزواج، فتبقى في حيرة من أمرها، لماذا لم أتزوج لحد الآن؟، على اعتبار أن "القَاعْدَة في الدَّارْ عَارْ"، وهو المثل الذي يطلق على كل من لم تتزوج سواء كانت عاملة أو ماكثة بالبيت، وحتى بالنسبة للتي أنهت دراستها الجامعية وتعمل وليس هناك ما يعطلها، ذلك أن "القعود بالبيت" لا يعني المكوث فيه وعدم الخروج منه فعلياً ولكنه التعريف الكامن لكل من بقيت دون زواج، فالمرأة التي يرضى عنها المجتمع هي المرأة المتزوجة، أو "اللّي دَارَتْ لَفْرِيضَة" ويقصد بالفريضة هنا الزواج.

وربما حاولت الفتاة التغلب على هذه الدوامات باللجوء إلى توثيق صلتها بالله أكثر، غير أنها قد تغلو دينيا فتمارس دور المفتي في التحليل والتحريم. وقد تسلك الفتاة العانس طريقا مغايرا تماما للهروب من دوامات القلق واليأس هذه، فتلجأ إلى الابتذال والسفور غير الطبيعي في ملابسها وهندامها بطريقة تثير غرائز الشباب، رغبة في إثبات الذات والشعور بأنها مرغوبة مثل باقي أترابها، بل وربما سعت في الوقت ذاته إلى كثرة الاختلاط بالشباب في الأماكن العامة وفي العمل والأسواق تحت زعم ما يسمى بالصداقة (غياث، 2016، ص2012)، وحين لا تجد المرأة تفسيرا منطقيا لـ"بوارها " فإنها تلجأ إلى سبل أخرى ميتافيزيقية تظن أن من خلالها ستجد المنفذ والحل لما بقي عالقاً عندها ويؤرق ليلها ويقلق نهارها، ولعل مظاهر التقرب من الأضرحة والدعاء عندها وإتيان طقوسها يكون أقرب عندها لما تجده من إجابات آنية أو تعلقا بالأمل مثلها مثل كل فتاة أو امرأة عانس تلتقي بها في هذه الأماكن المقدسة التي تختلف باختلاف الطلب وإتيان الطقوس، ومثال ذلك "الكسَّابة" في منطقة مستغانم بالجزائر و "لالَّة عيشة البحرية" بمنطقة أزمّور بالمغرب، **وهما** صورتان نسويّتين مثَّلتا ومازالتا تمثلان المخزون الثقافي في الجزائر والمغرب، ويتشابهان في الحكاية أو وقائع القصة ومن خلال رموزهما التي تناقلتها الأجيال عبر العصور إلى أن صارتا أسطورتين شائعتين، فمجرد ذكر هذين الاسمين يتأتى وراءهما كثير من المنافذ التي حاكتها مخيّلة المجتمع النّسويّ خاصة ليصبحان من أهم الطقوس النسائية المغاربيّة كل واحدة في منطقتها وكليهما لا يحملان تأريخا علميا إلا ما تقوله الحكاية الشعبية؛ فمن خلال ما سبق تتبادر إلى أذهاننا التساؤلات التالية:

أ. ما سر أسطورة كل من الكسّابة " و "لالَّة عيشة البحرية"؟ وما أوجه التشابه بينهما؟

ب. وأية علاقة تربطهما كطقسين اجتماعيين بزواج الفتاة؟

أهمية الدراسة: بعد اكتشاف هذه الظاهرة ودراستها من الناحية الأنثروبولوجية من قبل الباحثتين علاق ومناد (2014)، وتعميقها من الناحية الإثنوغرافية- النفسية من قبل علاق (2017)، واطلاعنا على الطقوس النسوية في المغرب الأقصى بعد قراءتنا العديدة حول موضوع الوليات الصالحات راعى انتباهنا ما يلي:

* التقارب بين الثقافات في المغرب العربي الكبير، من وجود طقس نسوي آخر بالمغرب الأقصى يشبه إلى حد كبير طقس الكسَّابة في الجزائر؛
* ارتباط محتوى هذين الطقسين بزواج المرأة التي هي في سن الزواج أو تأخر زواجها؛
* ارتباط الأسطورتين في المخيال الشعبي بحكايتين عن حب أزلي لم يتحقق في الواقع ليصبح مقصدا لتحقيق الأماني عند المرأة غير المتزوجة أو من تأخر زواجها؛
* التقارب في ممارسة الطقسين إلى حد كبير توحي بارتباط واضح في العادات وفي سيرورة التفكير وإتيان رموزه عند المرأة المغاربية وهو ما دفعنا إلى تعميق دراساتهما من الناحية النفسية- الوصفية هذه المرّة محاولين المقارنة بينهما من أجل الكشف عن أوجه الشبه والاختلاف بينهما من جهة، وعن مغزى تأثيراتهما على كل من الفتاة الجزائرية والمغربية غير المتزوجة أو ممن تأخر زواجها من جهة أخرى.

ولا بد من التنويه أن كلتا الأسطورتين لم تلق اهتماماً من طرف المهتمين من السوسيولوجيين أو الأنثربولوجيين ولا حتى من علماء النفس كموضوع يستحق كشف الغطاء عنه وتحيين معطياته بطرق علمية،-على حد علم الباحثة- كما أن جمع المادة العلمية التي تدور حولهما كانت نادرة إن لم نقل منعدمة تماما، خصوصا تلك المتعلقة بـ "لالَّة عيشة البحرية" موضوع دراستنا، -حيث وجدنا أن معظم الكتابات العلمية دارت حول وجهين أسطوريين وهما "عيشة قنديشة" أو "عيشة السودانية" والتي كان يجب التحقيق في الكتابات التي تناولتهما نظرا للتداخل الكبير في المعلومات (Douider, 2012; Hermans, 2015; Maréchal & Dasseto, 2014; Moundib, 2016; Radi, 2009, 2013) إلا من بعض الكتابات الصحفية المنشورة هنا وهناك، والتي لا يمكن اعتمادها كمرجع علمي، الأمر الذي صعب علينا مهمة الكتابة بمنهجية علمية.

أهداف الدراسة: يأتي هذا البحث في سياق الكشف عن المقاربات الثقافية التي تزخر بها مناطق المغرب العربي الكبير من جهة والتعريف بالتراث المحلي الشعبي لمنطقتين ساحليتين إحداهما تقع غرب الجزائر بمنطقة مستغانم والثانية بإقليم أزمور غير بعيد عن الدار البيضاء بالمغرب الأقصى، من خلال جمع المادة العلمية حولهما وتحليلها ثم المقارنة بينها، ونلخصها في ما يلي:
* محاولة الكشف عن المقاربات الثقافية بين المجتمعات المغاربية وإظهار المتشابه منها من الطقوس والممارسات والمعتقدات الاجتماعية النسوية والمتعلقة بالزواج ودراستها دراسة علمية.
* التعرف على دوافع هذه الطقوس والممارسات واستنباط الخفي منها سواء في الجزائر أو في المغرب الأقصى.
* الكشف العلمي عن أشكال الممارسات النسوية الجماعية وتحليل عوامل تشكيل هذه الظاهرة محل الدراسة بمقاربة نفسية تحليلية مقارنة.

المفاهيم الإجرائية

* **مفهوم الأسطورة:** رواية أو حكاية تاريخية تنطوي على الخيال، تقص أحداثا خارقة للطبيعة وقعت في بداية الزمان، أحداث تجمع بين الفكر والخيال والوجدان، وأداته الرمز وتتمثل في أسطورة "الكسَّابة" في الجزائر و"لالَّة عيشة البحرية" بالمغرب.

* **مفهوم طقس "الكسّابة":** هو طقس من الطقوس النسوية الجماعية التي تمثل مخزون الذاكرة الشعبية للمجتمع المستغانمي التي حملتها المرأة عبر الأجيال وتقوم بتطبيق ما تم تخزينه من تراث يدور مغزاه حول قصة حب نسويّ بامتياز، أسست من حولها عقيدة وعادة لتتحول إلى طقس سلوكي منظّم تحقق من خلاله كل من تأخر زواجها أمنيتها في أن تجد الزوج الذي ترغب فيه، والذي يتم إحياءه من قبل نساء مستغانم وضواحيها كل سنة في أول أيام الربيع أي في الواحد والعشرين (21) من مارس (آذار) بشكل جماعي (علاق، 2017، ص. 123).

* **مفهوم طقس "لالَّة عيشة البحرية":** هو من الطقوس التي تلجأ إليها الفتاة المغربية للتخلص من العنوسة من خلال سلسلة من الممارسات الرمزية المنظّمة التي تتم حول ضريح "لالة عيشة البحرية"

بإقليم أزمور وتنخرط فيها النسوة بكثافة وبمختلف فئاتهن من أجل إحياء حب أزلي لم يتحقق من خلال تقمصات هوامية مع البطلة طلبا لتحقيق رغبة كل واحدة في الزواج.

الدراسات السابقة: لم نجد من الدراسات العلمية إلا الدراستين التاليتين واللتان تدوران حول موضوع "الكسّابة"، ولم نجد أية دراسة علمية حول موضوع "لالة عيشة البحرية" مقارنة بنظيرتها "لالة عيشة قنديشة" ما عدى بعض العناوين أو المقالات الصحفية المغربية:

دراسة علاق ومناد (2014) التي هدفت إلى الكشف عن أحد طقوس استقبال الربيع في التراث الشعبي المستغانمي بالجزائر وهو طقس " الكسّابة" باستخدام المنهج الإثنولوجي النفسي- الاجتماعي الوصفي، والأدوات التالية: الملاحظة بالمشاركة، المقابلة، بالإضافة إلى التصوير الفوتوغرافي وبالفيديو والتسجيل الصوتي، وتطبيقها على العينة المكانية من مريدات طقس الكسّابة، ومن نتائجها ما يلي:

- عادة الكسّابة "لا تخلو من كونها معتقدا ذو أهمية حيوية في الواقع المعاش لدى من تمارسها من النسوة؛ بدأت بحكاية وصارت أمراً عملياً وتطبيقا رمزيا منظما.
- اتفقت جميع النسوة حول التفكير في التأثير الخفي لطقس الكسّابة في حياتهن اليومية، وإجماعهن على تحقيق رغبة كل واحدة منهن في الزواج.
- رسوخ المعتقد بالقوى ما فوق طبيعية، كالعين والجن والسحر عند المرأة المستغانمية والتي ترجع إلى التنشئة الاجتماعية السائدة في المنطقة، مما يترجم الخلفية النفسية القوية التي تتحكم في تأويلها للظواهر الطبيعية والاجتماعية المحيطة بها.
- يعد اللجوء إلى ممارسة طقس" الكسّابة" البديل أو التعويض ما فوق طبيعي الذي يوقف في اعتقاد المرأة عجزها عن تفسير الوضع الذي تعيشه تفسيرا واقعيا.

* **دراسة علاق (2017)** التي ربطت طقس الكسّابة بالعلاج النفسي الجماعي للاضطرابات النفسية للمرأة بمدينة مستغانم الجزائرية، مستعملة المنهج الاثنوغرافي -النفسي الذي يقوم على تحليل الظاهرة الموصوفة ودراستها، ثم استنتاج الأحكام التي تبيّن قيمتها من خلال المنهج الوصفي الذي يتناسب وطبيعة الدراسة، معتمدة على العديد من الأدوات كالملاحظة بالمشاركة والمقابلة والتسجيل الفوتوغرافي والفيديو بالإضافة إلى التسجيل الصوتي التي تم تطبيقها على عينة مكانية قوامها عشرون (20) امرأة من مريدات طقس الكسّابة تراوحت أعمارهن بين 21-47 سنة، ومن نتائجها:

- الكسّابة طقس من طقوس جلب السعد للفتاة غير المتزوجة سواء تلك التي هي في سن الزواج أو ممن تأخر زواجها.
- الكسّابة طقس جمعي نسائي، تدل رموز ممارساته على علاج جماعي للاضطرابات النفسية التي تعاني منها الفتاة المستغانمية غير المتزوجة أو من تأخر زواجها نتيجة الضغوط الحياتية اليومية وتنفيسا عملياً لقلق المستقبل الذي يغرسه المجتمع فيها.

منهجية الدراسة

لعل المنهج الذي يتناسب وطبيعة دراستنا هو المنهج الوصفي التحليلي المقارن، لأنه يتناسب ودراستنا، حيث يسمح لنا بدراسة الظاهرة كما هي في الواقع، ووصفها وصفاً دقيقاً، وجمع المعلومات عنها، والتعبير عنها كيفياً، تمهيداً لفهم الظاهرة الطقسية لكل من "الكسّابة" و"لالّة عيشة البحرية" من جهة مع تشخيصهما تشخيصاً نفسيا- اجتماعياً وثقافيا، وتحليليهما متفرقتين ثم مجتمعتين من خلال دراسة وتحليل مضمون الأسطورتين مع التركيز على إجراءات تطبيق الطقسين من جهة أخرى، ثم المقارنة بينهما عن طريق استخراج أوجه الشبه والاختلاف، فهو المنهج الذي يمكننا فقط من الوقوف عند حدود وصف الظاهرة الطقسية - لجلب الحظ والزواج عند المرأة العانس أو من تأخر زواجها- موضوع الدراسة، وإنَّما يذهب إلى أبعد من ذلك، فهو يدفع بنا إلى التحليل والتفسير والمقارنة والتقييم أيضاً.

أدوات الدراسة: تم اختيار تحليل المحتوى كأداة تساعدنا على فهم مضمون الطقوس المتعلقة بجلب الحظ والزواج عند المرأة العانس أو من تأخر زواجها في مجتمعين أقل ما يقال عنهما أنهما متشابهين في

العادات والأعراف والتوجهات من خلال القراءات والتحقيقات الصحفية التي اعتنت بالمادة خصوصا وأن موضوعنا لم يتم التطرق إليه كبحث علمي حسب علم الباحثة من جهة أخرى.

ويدور تساؤلنا حول محورين هامين وهما: ماهية أسطورة كل من "الكسّابة " و"لالّة عيشة البحرية" من جهة، ثم استخراج أوجه الشبه والاختلاف بينهما من جهة أخرى.

فما هو إذن سرّ أسطورة كل من "الكسّابة " و"لالّة عيشة البحرية"؟، للإجابة عن هذا السؤال يتعين علينا أن نعرّج قليلاً على ماهية هاتين الأسطورتين:

1- **أسطورة الكَسَّابَة**: هي من الأساطير التي دخلت قاموس الثقافة الشعبية في منطقة مستغانم الساحلية الواقعة غرب الجزائر، وهي من الطقوس الموسميّة النسويّة التي تهدف كلُّ غير متزوجة أو عانس من خلال تطبيق خطواتها إلى جلب السعد أو فارس الأحلام، حيث عرفت انتشارا كبيرا، وتجاوز صيتها في الآونة الأخيرة حدود المنطقة، مع انتشار استخدام التكنولوجيا الحديثة.

تدور أحداث الأسطورة التي تناولها المسرحي "ولد عبد الرحمن كاكي" في مسرحيّته "كُلْ وَاحَدْ وْحَكْمُو" التي كتبها سنة (1967)، حول حكاية شعبية قديمة متداولة في منطقة مستغانم يقال إنها واقعية، وهي حكاية "الجوهر" ذات الأربع عشرة (14) ربيعاً[14]، التي أحبّت جارها "سعدي" [15] الشاب الفقير والعاطل عن العمل، وتقدم لخطبتها عجوز هرم متزوج بثلاث نسوة وله اثنا عشرة ولداً، وهو عجوز غني ذا صيت وجبروت ومال يدعى الشيخ " جبّور"[16] مستغلا ديون والدها المتراكمة لديه وضعف أهلها أمامه والذين لم يجدوا بدّا من الرضوخ لمطلبه وتزويجها غصبا، في حين رفضت هي الاقتران به، وجاء اليوم الموعود، وزُفّت "الجوهر" عروساً إلى بيت زوجها العجوز.. وكما جرت العادة عند أهالي مستغانم فلا بد من زيارة ضريح الولي الصالح سيدي المجدوب الذي يتخذ مكانا مهمًّا فوق تلّة مطلة على البحر للتبرك به، وهي الفرصة التي استغلتها "الجوهر" لتفرّ من مُرافقاتها، واتجهت صوب الشاطئ لتلقي بنفسها في المكان المسمى بـ"القلتة" [17] وترمي بنفسها في البحر، وغرقت هناك مفضّلة بذلك الانتحار حفاظا على حبها لمن تهواه ورفضا لزواجها بمن لا تحب، ولا تنتهي الحكاية هنا. بل تنتقل الأحداث إلى عالم الجن والأرواح الخفية من جنس العفاريت التي قامت بإنقاذ الفتاة والاعتناء بها بعيدا عن أهلها الذين فعلوا المستحيل للعثور عليها، ويعلم الشيخ "جبّور" بأنها في عالم الجن، ويحاول التقرب منهم ليستعيد عروسه، لكن محاولاته كلها باءت بالفشل خصوصا بعد إصرار الفتاة على الرفض وفضلت أن تموت انتصاراً لحبها، وبرفضها العودة إلى عالم الأحياء اختارت "الجوهر" الموت على الزواج به. وفي النهاية يموت الرجل العجوز. وبعد وفاته بأيام وُجد جسد الفتاة مُلقاً على شاطئ البحر (كاكي، 1967).

ومنذ ذاك الحين ارتبطت هذه الحكاية عند النسوة بطلب الزواج، وأصبحت موضوع طقس جلب الحظ والزواج عندها، ولا يمكن القيام بإجراءاته إلا في شاطئ البحر في ذلك المكان بالذات (علاق و مناد، 2014)، فبالرغم من النهاية التراجيدية للبطلة فإنها تحولت إلى قبلة للنساء الباحثات عن الزواج والسعد، فالوفاء للحب العذريّ وتولّي العفاريت زمام الأمور، هو ما جعل هذه الحكاية ترتقي إلى مصاف الأساطير التي تغذّي الطقس الذي أصبح يُعرف بطقس "الكسّابة"، والذي تُحييه النساء المستغانميّات كل سنة عند قدوم الربيع.

1-1 التعريف بمفهوم الكسّابة: كلمة "الكسّابة" من الناحية اللغوية مشتقة من الفعل كَسَبَ، وجاءت في بحثنا بصيغة المبالغة وتعني الكسب غير المحدود؛ ويُعرّفه ابن منظور (ب.ت، ص 716-717) كما يلي: "الكَسْبُ طَلَبُ الرِّزْقِ، والكَسْبُ الطَّلَبُ والسَّعْيُ في طَلَبِ الرزق والمَعيشةِ؛ فالكسب إذن مرتبط بالسَّعي للحصول على رغبة ما، تكون إما رزقا أو ولدا أو علما...إلخ.

---

14 . اختار عبد الرحمن كاكي تسمية بطلة الأسطورة بـ " الجوهر" ومعناه اللؤلؤ، نسبة إلى نقاءها وقيمتها الرمزية.

15 . ويعنى بـ"السَّعدي" المكتوب أو الحظ، والغريب أن نساء المنطقة يطلقون تسمية "السعد" على الزوج، وإذا سألن عن زوج إحداهن يقلن لها كيف هو "سَعْدَكْ"؟ بدلا من زوجك، أو" مُولَى دَارَكْ".

16 . ويرمز اسم "جبّور" إلى الجبروت والطغيان.

17 . وهي كلمة عاميّة تقابلها في اللغة كلمة "المستنقع "وتُعرف في مناطق الوسط والشرق الجزائري وفي المغرب الأقصى "بالمرجة".

2-1 المفهوم التاريخي لـ "الكسّابة": يعود أصل "الكسّابة" كما في معظم الأساطير إلى عقود طويلة لم نتمكن من تحديد تاريخه بالضبط، غير أن جميع من تم سؤالهن من النساء المستغانميّات، أجمعن أنها عادة قديمة، مُتوارثة من الأجداد ارتبطت بالزواج، واقترنت بأول يوم من أيام الربيع أي في الواحد والعشرين (21) مارس (آذار) من كل سنة (علاق ومناد، 2014، ص. 142)، ولم نجد دليلا عن سبب ارتباط الرواية بالاحتفال بميلاد الربيع.

وتُنسب تسمية "الكسّابة" حسب ما ذكرته كل من علاق ومناد (2014، ص. 143) في الأصل إلى ثلاث روايات مختلفة، ترجعها الرواية الأولى وهي الشائعة إلى زهرة صفراء اللون تنبت في محيط ضريح سيدي المجدوب، وهي عبارة عن نبتة صغيرة ذات لون أصفر تشبه زهرة الياسمين الأصفر لكنها أصغر منها بكثير، ولها سيقان رقيقة، وليست ذات رائحة واضحة ولا عبقة، تزهر في الشهر الثالث من كل عام؛ وهناك رواية ثانية تقول إن التسمية تعود على "القَلْتَة" أي المكان الذي يمارس فيه الطقس، وترجعها الرواية الثالثة إلى إجراءات تطبيق الطقس، أي منذ قطف الزهرة حتى العودة بها إلى البيت هي من تعني "الكسّابة"، لكن ليس ثمة تحديد دقيق لمرجع هذه التسمية.

3-1 إجراءات الطقس: يعود تطبيق الطقس في العادة إلى النساء الكبيرات في السن من الجدات أو الأمهات، وهن من تقمن بقطف الزهرة الصفراء بواسطة خاتم من ذهب يكون مِلكاً للفتاة التي يُؤمل تزويجها، وهو الشرط المعتمد في إجراءات الطقس، بعد أن ينزلن قبيل طلوع شمس يوم 21 من مارس (آذار) في سُكون وتستّر رغبة في قضاء الحاجة، وبعيدا عن الإشاعة، فاستحضار النّيّة واجب عند قطفها بالرغبة في أن تتزوج صاحبة الخاتم، ثم تنزل النسوة بعد قطفها إلى شاطئ سيدي المجدوب حيث بداية الشاطئ المحيطة بالصخور في شكل شبه دائري يطلق عليه أصحاب المكان "بالقلتة"، وتدخل النسوة البحر بثيابهن ويحاولن التوغل فيه مشياً تارةً ومُتسلقات الصخور تارة أخرى حتى تصلن إلى المكان المحيط بالصخور الذي يشبه شكله مغارة مفتوحة، ولا يهم إن كان البحر هائجاً أم هادئاً، فالمهم هو الوصول إلى الهدف، وهناك تقمن بإشعال الشموع وإطلاق الزغاريد ورمي الحناء والسكر في المكان المخصص تبركاً وتكملة للطقس حتى يتم القبول، ويزيدهن تلاطم الأمواج حماسة واعتقاداً أكثر وهن يكملن خطوات الطقس بأن "أسياد المكان" ويقصد بهم "الجنّ" أو "الْجْنُونْ" بالعامية قد قبلوا النذور، ثم ترجع النسوة إلى الشاطئ مبلّلات الثياب، لكن لا يُمْكنُهُنّ مغادرة المكان دون المرور بضريح الولي "سيدي المجدوب" بعد أن تقمن بلفّ النبتة في القطن مع قطعة سكر وقليل من الحناء لتحفظنها في صندوق الحلي، أو في جهاز الفتاة المقصودة بالبركة إلى العام المقبل، حيث تعود النسوة في نفس اليوم أي في (21) من مارس، لتحمل كل واحدة معها الزهرة القديمة بعد أن تستخرجها من الصندوق لتعيدها إلى المكان الذي تم قطفها منه في السنة الماضية، وتعاود قطف واحدة أخرى بنفس الطقوس، ولكن بنيّة تزويج فتاة أخرى هذه المرّة، وهكذا تتكرر العملية كل سنة، وتعاد نفس مراسيم الطقس (علاق، 2017، ص. 128).

ومع مرور السنين، انحرفت ممارسة هذا الطقس عن هدفها الأول وهو إزاحة التعطيل عن الزواج، ليصبح الطقس مقصدا لكل من تعطلت أموره أو استعصت مشاكله ليجد في المخزون التراثي للمجتمع ملاذه وأمله الأخير، ولم تعد هذه الظاهرة تمارس في الخفاء بعيدا عن الأنظار ومن قِبَل كبيرات السن أو الجدات تحديدا كما جرت عليه العادة قديما، بل أصبحت الفتيات ممن هن في سن الزواج أو من اللاتي تأخر زواجهن من مختلف الأعمار هن من يقمن بتطبيقه وأمام الملأ، كما لم تعد تستقطب فئة الأميّات وضعيفات الدخل من الفتيات فقط، بل شملت أيضا النخبة المتعلمة وحتى الفئة الميسورة، حيث تحضر في هذا نساء من مختلف المستويات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية مجتمعة دون تمييز.

4-1 شروط التطبيق: يأتي الاستعداد لتطبيق الطقس بأيام قبل موعد 21 من مارس (آذار)، إن لم نقل بشهور، فهناك من تُحضّر للطقس وتسجل التاريخ في أجندتها وتنتظر بفارغ الصبر اليوم الموعود، والملاحظ أن الاستعداد تصاحبه العديد من الخطوات هي:

أ- **إخلاص النية:** قبل تطبيق الطقس، وتقوم كثير من النساء بشراء الحنة والسكر والشمع ووضعها تحت وسادتهن ليلا لتبيّت النّيّة؛ والنية كما يعرّفها كمال غزال هي" عملية عقلية واعية في الأساس وتتركز على محور أو فكرة معينة تعبّر عن رغبة لدى صاحبها، وقد تحمل في بعض الأحيان عواطف أو شحنات شعورية سواء أكانت سلبية أم إيجابية"(علاق، 2017، ص. 129)، فعقد النيّة مرتبط بـ"الأمل" ومعناه في اللغة العربية "الرجاء"؛ وهو عكس اليأس ويعرّف على أنه "ذلك الشعور أو العاطفة التي يشعر معها الإنسان بالتفاؤل والإيجابية تجاه ذاته وتجاه الآخرين، وهو الشعور الذي يجعله قادراً على التفاعل والتكيف مع المحيطين به ويدفعه بمنأى عن العزلة، وهو أيضاً الشعور الذي يرجو معه الإنسان نتائج إيجابية مهما كانت الحوادث السلبية التي يمر بها حتى لو كانت هذه النتائج الإيجابية صعبة أو مستحيلة الحدوث.

ويتأسس الأمل في هذه الحالة على تركيز التفكير في الأشياء التي تجعل المرأة تشعر بالامتنان مع رسوخ المعتقد الذي يترسخ من خلال توافر معلومات عن صحّة وصدق "الكسّابة" في تحقيق الأماني، وأهمها أن تحصلن على مكانة في المجتمع عن طريق الزواج، ومن لم تكن لديها النية في الطقس فسوف لن يتحقق لها أي شيء؛ كما أن الاتصال بالنساء الأخريات والتفاعل معهن له دور في محاربة حياة الخوف والعزلة، ليصبح الطقس بممارساته طقسا يُوحّد أحلامهن ويُغذّي آمالهن المتعلقة بالسعي وراء تحقيق المطالب والرغبات مستعينات بالمقولة التالية: "أسْعَى يَا عَبْدي وأنا نَسْعَى مْعَاكْ" وهو ما يعني أن البحث عن الأسباب أمر واجب، وأنه سيلاقي معونة الخالق عز وجل. ويأتي هذا بعد أن يحدد المقصود، لتنتقل المرأة من مرحلة التعرف والترقب إلى مرحلة العمل الفعلي وتحقيق الأهداف، ولعل ممارسة الطقس تعد مسعى عمليا لتحقيق الأمنيات (علاق، 2017).

ب- يلعب التحضير النفسي لممارسة الطقس دوراً فعّالاً في جعل الفتاة تحضّر نفسها بشكل إيجابي، بحيث تركز فقط على الدعم النفسي الذي يمكن أن تستفيد به من هذه العادة وتجعلها بواسطة آلية التنفيس أقل قلقاً، لأنها ستجعل كل الضغوط وما يحيط بها من قلق وخوف من المستقبل تصرف بشكل جماعي، بما أن الرغبة في الزواج أمر مُلحّ عندهن، فهن ينتظرن اليوم المخصص لهذا الطقس حتى تستطعن الحضور والمشاركة، فتأتين فرادى أو أزواجاً أو زرافات، وكأنها عملية لكسر الخوف وتصريف القلق الداخلي بعد أن ترى كل واحدة أنها ليست وحدها من بقيت عانسا، وأن ما تفعله لا يخرج عن العادة ما دام الكل حاضرا من أجل نفس الهدف وهو الحصول على زوج.

ت- ربط طقس "الكسّابة" بتنحية التعطيل أو العاكس عن الزائرات من الفتيات ممن هن في سن الزواج أو اللائي تأخر زواجهن، رغبة في الزواج. وتعززن ذلك بالنية وصدقها والاستعداد النفسي لممارستها، كما أن الدّعم النفسي الذي يلقينه من قبل القريبات والصديقات اللائي نجحن في تحقيق أحلامهن بواسطتها يزيدهن إرادة وإصرارا على ممارسة هذا الطقس.

2- **أسطورة "لالَّة عيشة البحرية" بأزمُّور بالمغرب الأقصى**: لا تكاد تبتعد عن سيناريو أسطورة "الجوهر" المستغانمية، التي تقول عنها الحكاية الشعبية أن "لالة عيشة البحرية" قدمت من بغداد في رحلة عبر البحر للبحث عن الولي الصالح "مولاي بوشعيب الردّاد" الذي طبق زهده وكراماته الأفق، بعد أن تعرّفت عليه أثناء مقامه في بغداد حين كان يتابع دراسته لأصول الشريعة الإسلامية هناك، فتعلقا ببعضهما البعض، غير أنهما فوجئا برفض زواجهما، فعاد "مولاي بوشعيب" يجر أذيال خيبته إلى قريته بأزمُّور، وما لبثت "لالَّة عيشة" أن عقدت عزمها على لقاء الحبيب حين شدت الرحال إليه، ولما بلغت أطراف الشاطئ بمصب وادي أم الربيع، أدركها الموت غرقاً دون أن تنال حظوة اللقاء به، فدفنت هناك ليشيد ضريح أسطوري على قبرها، وأصابت "مولاي بوشعيب" الحسرة فقرّر بعدها أن يعيش باقي حياته عازبا.

لا بد من التنويه أن موضوعنا لا يتعلق بالأسطورة التي تحمل اسم "عيشة البحرية"، التي تطلق على عيشة "الكونتسة" أو "قنديشة" بلهجة المغاربة أو "مولاة المرجة" أي "سيدة المستنقعات" وتعرف أيضا بأنها الفارسة المغوارة التي حاربت الاستعمار الفرنسي بعد استشهاد زوجها، وتدور حولها خرافات كثيرة على أنها امرأة بالغة الجمال تخفي خلف ثوبها الأبيض قدمين تشبهان قوائم البغال أو الماعز. ويُزعم أنها

تظهر ليلاً في الغابات وبجوار مجاري المياه (Douider, 2012)، أو تلك التي يطلق عليها تسمية "عيشة السودانية" أو "عيشة القناوية" بحسب اختلاف المناطق المغربية"(الطبال، 2014، ص. 91)، وتسمى أيضا "لاّ عيشة الحمدوشية" كما يطلق عليها أيضا تسمية عيشة مولاة الواد، "أميرة الأرواح المؤنثة المسلمة عند الحمادشة والتي تقول الأسطورة أنه جيء بها من السودان من قبل سيدي أحمد الدغوغي" (Maréchal & Dasseto, 2014, p. 110) وترتبط بالولي الصالح سيدي احمادوش، وهي كلها أسماء" أطلقت على الجنية الأكثر شعبية في المغرب، ولها ضريح مشهور بالمغرب، وتهدف أيضا إلى زواج العانس من النساء"(Douider, 2012)، وهما الوجهان النسويان اللذان دارت حولها العديد من الدراسات: (Douider, 2012; Hermans, 2015; Maréchal & Dasseto, 2014; Moundib, 2016; Radi, 2009, 2013)، فكلاهما "سيدة الواد" أو "مولاة الواد"؛ غير أن دراستنا خصصت لوجه نسوي ثالث يعرف أيضا بنفس التسمية أي "لالّة عيشة" لكنها أيضا مرتبطة بمصب نهر أم الربيع ويطلق عليها "لالة عيشة البحرية" وتنسب للبحر أيضا، وهي المقصودة في دراستنا هذه.

2-1 التعريف بأسطورة " لالَّة عيشة البحرية": هي أسطورة أصبحت من الطقوس التي ارتبطت أيضا بالزواج عند المغاربة، ويمكن ربطه بالطقوس النسائية بامتياز على أساس أن من تقوم بتطبيقه هن نساء من مختلف الأعمار ومختلف المستويات الثقافية والاجتماعية، وتحديداً الفتيات اللواتي يخفن أن يفوتهن قطار الزواج، يأتين ضريحها الذي يعرف من بعيد بلونه المطُليّ بالأبيض وسطحه من القرميد ذو اللون الأخضر من كل مناطق المغرب، في موعد محدد يكون عادة في المواسم وخصوصا في اليوم السابع من الأعياد الدينية الكبرى للتبرك والنزهة وحتى في غيرها من الأيام من أجل الحصول على بركة "لالَّة عيشة" وتنزيل لعنة "التَّثْقَافْ" أو "المانع" الذي يمنعهن من الزواج، وكل من تحضره تؤمن بأن مقام "لالة عيشة" سيقدم لها الزوج المناسب قريبا، فقط يجب التحلي بالصبر وعدم اليأس ليتحقق المراد. ويعتقد أن النساء يأتين لتممارسة عادة الخصوبة والتي تتمثل في السباحة في سبع موجات متتابعات من أمواج مصب نهر أم الربيع (Auzias & Labourette, 2014).

2-2 المفهوم التاريخي لأسطورة"لالَّة عيشة البحرية": يرجّح أن سطوع نجم " لالَّة عيشة البحرية "يعود إلى بداية القرن السادس عشر (12) الميلادي ؛ ويطلق عليها لقب "لالا" أو " لالّة"، و هو لقب يعطى للمرأة الفاضلة المتدينة ذات المكانة الرفيعة؛ وتضيف الحكاية أن علاقة "لالة عيشة" "بمولاي بوشعيب" كانت من نوع خاص حيث تميزت بالروحية إلى درجة أنهما كانا يلعبان الكرة، فتمرّ الكرة من بغداد لتصل إلى أزمُّور، بعد أن تقول له: "هاكْ آبو شعيب في جنب الوادْ.." ويردّ عليها: "هاكي آعائشة في بغدادْ!" أي التقطها يا أبا شعيب جنب الواد، ويرد عليها أبو شعيب التقطيها يا عائشة في بغداد. وظلت النسوة تزرنها في اليوم السابع من الأعياد الدينية الكبرى للتبرك والنزهة، أو ليلة العاشر من محرم (امشكح، 2012)، قبل أن تتحول مهمتها اليوم لشيء آخر هو تزويج العوانس.

2-3 إجراءات الطقس: وتكون كالآتي:

أ- عقد النية: وهو أول ما تقوم به الزائرة لضريح "لالَّة عيشة البحرية" و"تعني القصد، إذ يقول المغاربة: النية أحسن من العمل"، أي " القصد الحسن خير من العمل أو الفعل"، وتعني أيضا الاعتقاد بالمعنى الخالص للثقة أي منح كل ثقته ل"، ومن هذا المنظور فإن النية يمكن أن تكون حالة نفسية للاعتقاد المطلق وبالإيمان الخالص والذي يضمن نجاعة [الفعل]" (ثم الدخول خشوعا وتضرّعاً لـ"أهل المكان" أو "الأجواد" (أي الجن) على لغة أهل المغرب، فتقدّم " الفتوح" وهو واجب مالي تضعه في صندوق خشبيّ تعود غنيمته للمكلفين بالمقام أو المشرفين على الضريح وهم "أولاد سيدي حمُيدة" الذين يَعتبرون أنفسهم حفدة عائشة، حيث يطلق اسم "الزيارة" على الذين يقومون بزيارة مقام الأولياء والقديسين. عندما يذهب المريدون إلى المقام، يحضرون معهم القرابين- ويطلق عليها أيضا الزيارة في المجتمع الجزائري-، التي تعتبر نوعا من الصدقات التي تمنح من أجل تحقيق الطلب. يمكن أن تكون إما مالا يوضع في صندوق أو حيوان مذبوح، وإضافة إلى ذلك غالباً ما يجلب الزوار معهم الشموع التي إما يضعونها أو

يضيئون بها الغرفة حيث يوجد قبر الولي. الشمعة تعني الضوء، بالمعنى الروحي للكلمة. عندما يضيء الزوار الشموع في "المقام"، فيقولون: "يا الولي- الفلاني- كيما ضويت شمعتك ضويها علي"، ويقال أيضا: "الله يضويها عليك كيما ضويتها علي" في حالة تقديم المساعدة والمعونة. وتسمى هذه الهدية أو الهبة " الفتوح" (ftūh) باللهجة المغربية، والتي تأتي من الفعل فَتَحَ وتعني الإذن بالدخول. وقد اشتق من اسم أول سورة من القرآن وهي الفاتحة، مما يعني: التمهيد، البداية، المقدمة، الديباجة. فـ" الفتوح" ftūh هو جزء من الفعل (أو الأجر)، وهو هدية مهمة. وهو بذلك يتعارض مع الصدقة، كونها هدية مجانية (Radi, 2013). ومنهم من يعتبر أن "الفتوح" هو حناء مخلوطة بالحليب وماء زهر وشمع. وهو نوع من "الاعتقاد الخفي" بهذه القوة الخارقة التي رسخت في المخيال الشعبي عن الأرواح وقداسة أماكن الأولياء والقديسين. ويسمع عند تقديم الفتوح من "مْقَدّم"المكان: "الساهلة يجيبها الله، واللي يجي على شي غرض الله يقضيها ليه بجاه رجال الله ولالّة عيشة البحرية، قول التسليم، زور تنور، زور بالنية والحاجة مقضية بجاه لالة عيشة البحرية "، أي لا يأتي بالسهل إلا الله، ومن جاء لقضاء حاجته فإن الله سيوفيها له بجاه الأولياء الصالحين وبجاه لالة عيشة البحرية، ويطلب الزيارة أي الصدقة، ومن يقدم الزيارة أي الصدقة فإن حاجته ستقضى لا محالة.

ويمكن اعتبارها اللجوء إلى تلك القوة الخارقة التي تستطيع تغيير الحال بقوة التأثير، والبحث عن الراحة والطمأنينة بعد أن أقلقهن وضعهن الحالي بسبب عدم الانحياز لأية طائفة من النساء فلا هن بنات أو صبيات ولا هن متزوجات أو مطلقات أو أرامل، لأن كل صنف من هؤلاء له وضعه المعروف في المجتمع إلا الصنف الذي ينتمين إليه وهو صنف العوانس. فهذا العقد الخفي الذي يربط من تلجأ إلى ممارسة الطقس وبين جنية المكان وقوة الأسياد من أجل تغيير الوضع المقلق يعتبر أداة تفسير وتبرير ذاتي تراه الحل المقنع والأخير. ويعني ذلك خلق أدوات تشجع هذا العقد العلائقي بينها وبين روح الجنية المقصودة وتجعل العلاقة أقوى بينهما كما في التحويل الإيجابي (transfert positif) الذي ينشأ بين المعالج والمريض. وهذا الادراك للعداء الصامت بينها وبين المجتمع البارد الذي أصبح لا يفهم وضعها ليس سوى بحث عن تفسير للمعنى، في إطار جماعي تشترك فيه كل واحدة تأخر زواجها، ويصبح بذلك عالما مشتركا يستطعن من خلاله إدراك كينونتهن كإنسان استنادا إلى مفارقة صامتة ومعلنة في نفس الوقت: بما أنهن غير طبيعيات في نظر المجتمع وبحكم أنهن "مسكينات" لأنهن لم يتزوجن، فهن يحملن هذا الوجع بصمت، وبحكم أنهن طبيعيات في نظرهن وأنهن لسن مريضات ولا معتوهات وليس لهن دخل في وضعهن الذي ينكره المجتمع، فهن يعلن رفضهن بشكل علني مشترك من غير اتفاق ولا دعوة للحضور، فهذا يجمعهن في سيكولوجيا مرضية تعرف بالديناميكية من أجل عقلنة اللامعقول في اللاشعور الجمعي.

ب- تأخذ خليطاً من الحناء وماء الزهر والقرنفل مُعدًّا مسبقاً في الضريح كخطوة ثالثة لتمرّر جزءا منه على خصلات شعرها وتطليه على يديها، ولن تكون وحدها من يفعل ذلك لأن اجتماع النسوة حول الإناء يشجع من تقوم بالطقس. وتأتي الخطوة الرابعة المتمثلة في أخذ كمية من ذلك الخليط لتقوم بواسطته بكتابة اسمها واسم فارس أحلامها على حائط الضّريح فالقاصد للمكان يلحظ تداخل الأسماء النسوية مع الرجالية، كل اسم مؤنث يقابله اسم مذكر. ولعل بركة المكان وروح "لالة عائشة البحرية" تجمع بين الاسمين، بعدها تأتي الخطوة الخامسة التي من خلالها يمكن تسهيل العملية كلها وهي خطوة مهمة لا يكتمل الطقس دونها، وتتمثل في "عملية شرب ما تستطيعه الزائرة من ماء البئر أو الاستحمام به وإن كان الجو بارداً أو ساخناً بعد أن تؤدي ثمن دلوٍ منه، وتقتني مشطاً من الباعة المتواجدين حول الضريح لتسريح شعرها، وتدور هذه العملية في خلوة عبارة عن قبو صغير متواجد قرب الضريح تنعدم فيه شروط النظافة، إذ تقوم الزائرة فيه بنزع ملابسها وتستحمّ بماء البئر وهي تمرّر المشط على خصلات شعرها، لترميه بعد ذلك خلف ظهرها، دون أن تلتفت خلفها كعملية حل الرباط ونزع العَاكِسْ أو" المانع"، كما عليها أن ترمي بكل الملابس الداخلية التي كانت ترتديها، لأنها بذلك ترمي كل "التَّابْعة" التي ألصِقت بها أو أن تتخلص منها ومن المشط كما يمكن للميسورات من الزائرات اللجوء إلى ذبح ديك أسود اللون في الفضاء المحيط بالضريح، وهي عملية اختيارية " (Moundib, 2016). وهناك من تكمل العملية بخطوة إضافية تقوم بها في العادة من لم تتزوج بالرغم من إعادة تطبيق الطقس أكثر من مرة، وهي ممارسة ما يسمى بـ "الرَّفْدَة"، ويقدم

كقربان لـ "أهل المكان" أو "الأجواد"، ثم يطعم به الزوار الذين يملؤون المكان بالخبز والتمر والزيتون الأسود، وهي طريقة تسمى في الجزائر بـ"النَّشْرَة". ويدور كل ذلك داخل وخارج الضريح من أجل الحصول على بركة الوليّة الصالحة في زعم زائراتها لتهَب لهن الزوج وتمنحهن السعد، وحتى يتحقق مرادها ويتكسر النحس، تضع البخور أو ما يعرف بـ "تفووسيخا"([18]) في "مجمر" يتم كسره بعد أن تخطو فوقه جيئة وذهابا سبع خطوات.

3- ماهي أوج التشابه والاختلاف بين الأسطورتين؟

من خلال تحليل معنى الأسطورتين وخطوات تطبيق هذين الطقسين يمكن أن نستنبط ما يلي:

3-1 أوجه الشبه بين الأسطورتين: من المفارقات التي وجدناها بعد المقارنة بين محتوى الأسطورتين، نذكر ما يلي:

المفارقة الأولى: تعتبر الأسطورتين من التراث الشعبي الشفهي الذي ينتقل من جيل إلى آخر داخل المجتمع، والذي يمثل حسب ما ذكرته جلاله (2001) نقلا عن سامية الساعاتي (1981) من "أن التراث الشعبي يمثل العناصر الثقافية التي خلفها الشعب أو المواد الثقافية الخاصة به (ثقافية، عقلية، اجتماعية، مادية)، والتراث الشعبي هو عبارة عن المعتقدات الشعبية والعادات الاجتماعية الشائعة وكذلك الرواية الشعبية الشفهية. كما يتضمن التراث الشعبي أيضا اعتقادات متنوعة منها الاعتقاد بالكائنات العلوية والسفلية كالجن والعفاريت والهواتف وأرواح الموتى وأرواح الأشياء وكيفية تفاعلها مع الإنسان حلولا به أو خروجا منه (عماد، ب.ت، ص 11). ويرى مولود معمري في هذا السياق:"أن الحضارة المغربية لأسباب ربما تكون تاريخية هي حضارة الكلمة المنطوقة الشفوية وذلك لأنها لا تمتلك الكتابة ولا تستعملها مما زاد من أهمية هذه الكلمة، وربما حدث هذا اختيارا، إذ لكل شعب طريقته الخاصة في التعبير" (بداك، 2016، ص. 108).

فالأصل أن الحكاية أنثى، تنتجها المرأة وتعيش فيها وبها، ولعل حكاية ألف ليلة وليلة أصدق الأدلة على أن الحكاية كائن أنثوي (الغدامي، 1998، ص. 24-25). وحكاية كل من الكسّابة ولالّة عيشة البحرية حكاية أنثوية دون منازع، أنتجتها أنثى وهي"الجوهر" بطلة حكاية "الكسابة"، و"عيشة البحرية" بطلة حكاية "لالّة عيشة البحرية"، وتعيش بها وفيها المرأة من خلال ممارسة حيثيات طقوسهما تقمصا للبطلتين، على اعتبار أنهما مرتبطتين بالجن. والعديد من المغاربة، وكذا الجزائريين، يؤمنون بتفسير شخصي لمصيرهم وصحتهم.

المفارقة الثانية: يدور موضوع الأسطورتين حول حكاية حب أزلي بطلته امرأة أحبت حتى الموت، في منطقتين ساحليتين، الأولى بمستغانم غرب الجزائر، والثانية بأزمور بالمغرب.

المفارقة الثالثة: النهاية غير السعيدة للحكايتين وهي وفاة بطلتي الأسطورتين؛ حيث وجدت كل من "الجوهر" و"لالَّة عيشة البحرية "مرميتين عند الشاطئ، فقد ألقي جسد الأولى على شاطئ سيدي المجدوب من قبل العفاريت بعد رفضها العودة إلى الحياة تضحية بنفسها وبحبها، ولم يشيّد لها قبر، لكن مكانها أصبح مقدسا ويزار كل سنة، وبلغت الثانية وهي قادمة من بغداد أطراف الشاطئ بمصب نهر أم الربيع الذي أدركها فيه الموت غرقا دون أن تنال حظوة اللقاء بمن جاءت في طلبه؛ فدفنت هناك وشيد ضريح أسطوري على قبرها.

المفارقة الرابعة: ظل المحبوبان على قيد الحياة، "السعدي" و"مولاي بوشعيب"، فقد جاء في أسطورة "لالَّة عيشة البحرية" أنه هو من دفنها، وبفعل حسرته عليها قرر بعدها أن يعيش بقية حياته عازباً، في

[18] . نسبة إلى نوع من البخور يدعى بـ "الفاسوخ المغربي"، وهو عبارة عن مادة صمغية تستخرج من شجرة تعرف في بلاد المغرب العربي بـ"الكَلَخ" لها رائحة كريهة عند الاحتراق، وهو نوعان أبيض يستخدم لعلاج السموم، وأسود يزعم بعض الناس أنّ له خاصية في فكّ السحر وإبطاله.

حين أن الغموض يكتنف موقف "السعدي" في أسطورة "الجوهر" الذي تراجع عن قرار الزواج منها نظرا لضعفه أمام قوة وجبروت الشيخ العجوز "جبّور"، كما لا نعلم كيف تلقّى خبر وفاتها.

المفارقة الخامسة: ترتبط الأسطورتان بمقامين جليلين عند سكان المنطقتين، إذ تدور أحداث حكاية أسطورة البطلة" الجوهر في شاطئ "سيدي المجدوب" الواقع شرق مدينة مستغانم، وهو مرتبط بالولي الصالح "سيدي المجدوب" المطل على البحر. ويعتقد المستغانميون أنه حامي البحر والبر، ولا يعرف إلى من يعود أصل هذا الوليّ فهل إلى الوليّ الصالح الشاعر والصوفي المغربي الذي هو أبو محمد عبد الرحمان بن عياد بن يعقوب بن سلامة بن خشان الذي عرف بتسمية"سيدي عبد الرحمن المجدوب" نظرا لزهده وورعه والمتوفي سنة 1568 والمعروف بـ"رباعيات المجدوب"، وتتداول الكثير من قصائده وأمثاله الشعبية في جميع أنحاء بلاد المغرب العربي، وتتغنى ببعضها الطرائق العيساوية وغيرها من المتصوفة في المغرب العربي، أو إلى الوليّ الصالح، الصوفي المجذوب السني سيدي أبو العباس أحمد والملقب أيضا بـ"المجدوب"، وقد ازداد سنة 898هـ – 1493م في منطقة الشلالة في الجنوب الغربي للجزائر والمدفون بمنطقة عسلة إحدى دوائر ولاية بشار، والذي عرف أيضا بزهده وورعه وسياحته، فلم نجد تأريخا ولا إشارة من هو صاحب الضريح الذي يعد من الأماكن المفضلة التي ترتبط بطقس الزواج. ويأتي بعد الولي الصالح "سيدي بلقاسم" ومقرُّه غرب مدينة مستغانم، من حيث تخصيصهما من قبل العامة من الناس ليكونا مزارا للعرسان قبل ليلة الزفاف. والحقيقة أن وجود قبور لأولياء حقيقيين أو خياليين هو ظاهرة تندرج ضمن معتقدات شعبية تعود إلى ما قبل الفتح الإسلامي للمغرب العربي. ويتصل هذا المعتقد بأهمية "الوسيط" في معتقدات المغاربة، وتصورهم أن ثمة قوى "فوق حسية" تُخضع الوجود لإرادتها. ومزارات الأولياء، قد تكون مثالاً للتعايش على مستوى اللاشعور الثقافي والجمعي بين آلهة ومعتقدات ما قبل الإسلام وبين مقدس الدين الجديد (جنبوبي، 2006، ص 9). وعلى اعتبار أن مستغانم هي بلد الأولياء الصالحين بامتياز، فإن الأحاديث التي تتداول عن هذا الولي بالذات، تدور جلها حول قدرته على الإتيان بالكرامات، في حياته وبعد مماته، إلى جانب أمور أخرى (علاق ومناد، 2014).

ويتم تعريف "المجدوب"، في التصور الصوفي الاسلامي، على أنه شخص مستنير، إيمائي، ومبتهج بفعل "الجدبة" إلى درجة فقدان الوعي. وفي التقاليد المغربية يعرف المجدوب أيضاً "بالْمَلْكْ" أي يصبح "مملوكا"، مما يسمح له بالوصول في لحظات غيبوبته (الغيبة) إلى بعض أسرار الوجود (Rhani, 2009, p. 38)

وتدور حكاية أسطورة "لالَّة عيشة البحرية" في مصب نهر أم الربيع قبالة ضريح الولي الصالح "أبو شعيب أيوب بن سعيد الصنهاجي" أو ما يعرف عنه بـ" مولاي بوشعيب الرداد" أو "بوشعيب السارية" لكونه إذا وقف في الصلاة وقراءة القرآن ليلا يطيل القيام متعامدا مع سواري المسجد كأنه كالسارية، لذالك سمي أيضا بـ"أيوب السارية". ولد سنة 463 هـ بقرية "أيير" الموجودة بدائرة عبدة إقليم "آسفي"، وهو صوفي مغربي عاصر الدولة المرابطية، وعاش في مدينة "أزمور" التي لا تبعد عن مدينة الجديدة الساحلية إلا ببضعة كيلومترات، وتوفي حوالي سنة 561 هـ، عن عمر يناهز 98 عامًا، ودُفن في مدينة أزمور. وقد أمر السلطان "محمد الثالث بن عبد الله" ببناء ضريحه الذي يقع غير بعيد عن ضريح "لالة عيشة "، وأصبح يتوافد عليه الكثير من الزوار، كما تقصده النساء العاقرات أملا في الإنجاب، ويطلق العامة عليه لقب" عاطي الْعْزَارَى أو الدُّرَارِي" أي"مانح الذرية من الذكور" (قريان، 2010). ويقال عنه أيضا أنه حامي المدينة، ويقع مقامه في نهاية عقبة الشارع المقابل للباب الرئيسي للمدينة القديمة والمسمى باب المخزن "Bab Maghzen"، وكان يزروه كثير من الناس من كل أنحاء المغرب وإسبانيا، وهذا جعل من أزمور قلعة غنية ومهدا للصوفية في القرن الثاني عشر (Auzias & Labourdette, 2014)

ومن ثم، يتبين أن هناك نوعين من الأولياء في المغرب العربي حسب درمونغام (Dermenghem, 1954): الأولياء "الشعبيون" أو "الفلكلوريون" و "الأولياء" الحقيقيون. إذا كان هؤلاء "الأولياء" مثالا يقتدى به أو علماء ورعين، فالأولون هم قديسون أسطوريون إلى حد ما، يصعب الوقوف على حقيقتهم

التاريخية. ومع ذلك، لا يوجد دائماً تمييز واضح بين هاتين الفئتين؛ ذلك أن بعض القديسين العلماء هم أيضا من القديسين الذين نسجت حولهم القصص الأسطورية والفلكلورية (Rhani, 2009, p. 29).

المفارقة السادسة: تحوّلت أسطورتا "الجوهر" بمستغانم و "لالّة عيشة البحرية" إلى طقس نسويٍّ بامتياز وملاذ للباحثات عن السّعد والحصول على زوج. إذ واظبت النساء على زيارة "القلتة" أو المستنقع الذي تعيش فيه جنّيّة البطلة قبالة ضريح "سيدي المجدوب" لإقامة الطقس الذي يعرف بـ"الكسابة" لدى المستغانميات تماما كما تفعل المغربيّات أمام ضريح "لالّة عيشة البحرية"مما يعني أن " كثافة الجنّ تكون أكبر قرب الينابيع والمستنقعات والبحيرات، والمرء لا يقترب منهم دون احتياط، ودون أن يحترم رغبتهم في الصمت والتستر، وذلك مع استبعاد أذيتهم المحتملة عن طريق ذكر قوى أسمى منهم" (باسكون، 1986، ص. 87). ويظهر أن البركة لا تقل بعد اختفاء الولي، بل نراها تتعزز من قبل المريدات إما ببركة المكان أو ببركة صاحبتي البركة المتمثلة في الجوهر ولالة عيشة البحرية، وحسب ما ذكره إدوارد وسترمارك في هذا الخصوص: "إن بركة القديس، لا تقل، بل تزداد بفعل موته. وإذا جاز التعبير، فالقديس لا يموت، و لا يخضع جسده للتفسخ، بل إنه قد يقفز من قبره، ويظهر في الواقع، وليس فقط في الأحلام مثل ما يظهر موتى الناس العاديين" (Rhani, 2009, p. 29).

المفارقة السابعة: يدخل طقسهما ضمن الطقوس النسوية حصرياً، أي أن الفئة المستهدفة منه هن العازبات ممن هن في سن الزواج أو اللائي تأخر زواجهن، ويتعلق هذا الطقس بطلب الزواج أولاً ومن خلاله حل "الثقاف" والذي يعني الكثير في الثقافة المغاربية ويعني العقدة "le nœud" أو "المانع" "le blocage". ويرتبط هذا المفهوم عموما بالزواج عموما وبالعلاقة الجنسية خصوصا، ويقال عن من لديه المانع أنه "مثقف" أو "مثقت" بالدارجة الجزائرية أي "المغلق" عند المرأة و"المانع" عند الرجل (Benchakroun, 2008). وهي نتائج تعود كلها لأعمال سحرية تكون باستخدام الجن عادة لتعطيل المرأة أو الرجل عن الزواج، وفي الحالة التي يتأخر فيها تنحية هذا المانع أو التثقاف عند المرأة أو الرجل على السواء بمكن أن يتحول إلى "عاكس" يمنع تقدم أي عريس لخطبة الفتاة، وحتى إذا حدثت الخطبة فإن الزواج لا يتم، وفي هذه الحالة التي يتم فيها الزواج فإن الدخول لا يتم لأن المرأة مربوطة.

و"الربيط" هنا نوعان: "رباط" معلوم تفعله الأم أو الجدة قصدا، وهو "تعبير يطلق على فتاة تحاط عذريتها بمحرم سحري تتخذه التمثلات الجماعية على أنه حقيقة، وتُزال الرقية السحرية ليلة الزفاف عن طريق شعار أنثوي، ويخلق عدم حله صدا جنسيا بين الشريكين ومعناه إرجاع رجل أو فتاة أعمى أمام رغبات فلان أو فلانة" (بداك، 2016، ص. 116) أو غير معلوم أو مجهول حين يوضع أو يعمل من قبل الحساد من النساء عموما.

المفارقة الثامنة: تأتي النيّة بتبييت القصد والعزم على تطبيق الطقس سواء في طقس "الكسّابة" أو في طقس "لالّة عيشة البحرية" في مقدمة ترتيب التنفيذ تحقيقا للأمنية التي تُسرّ بها كل مريدة للطقس، وتكتمها في قلبها طلباً لتحقيقها. وهي التي تحدد هدف العمل الذي ستقوم به الفتاة، فتنوي كل واحدة في قلبها ما تنوي تطبيقه وهو جزء لا يتجزأ من كمال المقصد، حيث أنها "لم تنشأ عن رغبة مجرّدة ولدت من فراغ، وإنما كانت استجابة لحالة موضوعية تضافرت في إيجادها عوامل متنوعة ومتفاعلة على نحو جدلي، فكل عامل يؤثر ويتأثر نتيجة التفاعل بين طبيعة الإنسان وطبيعة الحياة، ولزاما علينا ألا ننسى المجتمع الذي نشأت فيه هذه الفتاة وسلوكها. فالاستعداد النفسي أو تنظيم الطاقة النفسية لهما أهمية قصوى في حياة الفتاة لأنها لا تخلو بالدرجة الأولى من القلق والتوتر وفقدان الثقة بالنفس والانفعال وغيرها من المؤثرات السلبية المعيقة، عندما تواجهها بعض المشكلات التي يصعب عليها حلّها أثناء محاولاتها تحقيق أهدافها، وبالتالي التأثير على سلوكها، خاصة عند اللائي لا يملكن القدرة على التحكم والسيطرة على درجة الانفعال (راتب،1997). "فكل الطرق العلاجية وجميع الاستراتيجيات يُنظر إليها أساسًا على أنها نداء (سبوب) أي الأخذ بالأسباب من أجل استدعاء الرأفة الإلهية. فهذا (السبوب) بغض النظر عن درجة

أدائه يبقى طعنا بسيطاً والذي لا يمكنه أن يغير في أي حال " المكتوب" القدر، وهذا يعني أنه لم يتم ضد إرادة الله أو حتى باستقلالية عنه "(Moundib, 2016).

المفارقة التاسعة: تشكل ذهنية المرأة حول الأسطورتين سواء في مستغانم أو في المغرب في ارتباطها بالماء، خزّانا لمجموعة من المعتقدات والأفكار التي تمزج بين المعقول والخرافي، مُجَسِّدَةً تَمَثُّلاً جماعيا للماء (الدبياني، 2015). وماء البحر أوفر حضاً في تطبيق طقس "الكسّابة"، ذلك أن الماء المالح أو ماء البحر من المعتقدات التي دارت حوله فكرة تنحية العاكس أو المانع، وحل الرباط وفك السحر، كما أن التوضؤ به أو رشه على عتبة البيت مزيح للطاقة السلبية أيضا، كما أن ماء المطر له نفس المفعول أيضاً حيث يستخرج من البئر، وهو المستخدم في طقس "لالّة عيشة البحرية". فـ"الأماكن المائية تعتبرمطهرة ومعالجة، وقد ترتبط إما بولي صالح، يعترف بقدرته على التصرف " (Ait Berri, 2017, p. 284).

المفارقة العاشرة: لو اعتمدنا على تحليل الرموز المصاحبة لتطبيق الطقسين سواء عند مريدات "الكسّابة" أو "لالّة عيشة البحرية" ودلالاتها لدى الفتاة التي لم تتزوج بعد أو تأخر زواجها، فإننا سنجد أن الفتاة استطاعت عن طريق ممارستها لكل منهما أن تبوح بما يختلج في نفسها من كوامن أفكارها ورغباتها المكبوتة حول قضية حساسة بشكل يبرز التمرد الجريء على سلطة المجتمع بأشكاله المتعددة، سواء أكانت داخلية أم خارجية، بآليات تعبير خاصة بها، لتعكس واقعها المأزوم اجتماعيا وإنسانيا، مستغلة اللغة الطقوسية لتتوارى خلفها وتحمل رموزها مهمّة البوح والتعويض عما تريده، وتفرغ من خلالها ما توالى عليها من كبت واستدخال لترسبات يومية ولروتين سلبية المجتمع (علاق، 2017)، فكلا الطقسين مليئان بالرموز الظاهرة والكامنة، تحاول النسوة من خلالهما توصيل صوتهن بطريقة مباشرة وغير مباشرة، على شكل شفرات رمزية تدور كلها حول رغباتها.

المفارقة الحادية عشر: التشابه في الممارسة الطقوسية التي تتطابق مع مقولة "يونغ" التي أوردتها حامد أمال النور (2011)، فقد اعتبر يونغ أن الممارسة الطقوسية تمثل أموراً مكبوتة يتم التعبير عنها في التماهي والتسامي من خلال اللجوء إلى تطبيق كل الخطوات الخاصة بهذا الطقس عن طريق الحركات الوجدانية التي ربما تشير إلى حالات نفسية فاعلة. وما يؤكده يونغ وآخرون (Jung & al., 1978, pp. 82-83) أيضا هو أن هناك إدراكا واعياً ولا واعياً للواقع، فالتعامل مع ظاهرة حقيقية (اجتماع النسوة داخل أو قرب الضريحين، المشاركة الوجدانية، العمل الجماعي للطقس..) يمكّننا من ترجمة الظاهرة من عالم الواقع إلى عالم الذهن، وتتحول إلى أحداث نفسية، طبيعتها النهائية غير معروفة طالما أن النفس لا تدرك مادتها النفسانية، ومن ثم فإن كل تجربة تحتوي على عدد غير محدد من العوامل غير المعروفة.

المفارقة الثانية عشر: يتوافق الطقسان على التعلق بالأمل، إذ أن الأمل الوحيد المتبقي لهؤلاء الناس حسب موندب (Moundib, 2016) هو أولياء الله الصالحين، أو القديسين، المقربين منه. فإذا كان لعبادة الأولياء في المغرب اليوم معنى، فلا يمكن أن يكون إلا ضمن نظام منطقي يجب تحديد عناصره أولاً قبل التمكن من تحديد تماسك بنيته (..). فتمثلات المغاربة، والجزائريين، عن الأولياء تجعل منهم أشخاصا (رجالا ونساء) قريبين من الله بسبب امتلاكهم للبركة، والرضى الإلهي الذي اكتسبوه خلال حياتهم، في وقت يسموه هؤلاء " بكري"(bekri)، وهو الماضي الذي ليس لديه سياق تاريخي محدد(..)على الرغم من أن هؤلاء الأولياء قد ماتوا ودفنوا في مقابرهم، مثل البشر العاديين، إلا أنهم ظلوا قادرين على الاحتفاظ بقدرات استثنائية، يفترض أنها تسمح بتحقيق دعوات أتباعهم ووزوارهم (Radi, 2013).

المفارقة الثالثة عشر: تمثل الممارسة الطقوسية "للكسّابة" ولـ" لالّة عيشة البحرية" شكلاً من أشكال إتاحة الفرصة لتفريغ الميول والرغبات، وهو ما أسماه "يونغ" "بقنوات الطاقة "(energy canalisation). وفي هذا الصدد يرى "كالفن وآخرون" أن الرمز بالنسبة لـ "يونغ" هو أكثر من مجرد إخفاء أو خداع للرمز. فالرموز هي تحولات لدوافع بدائية، وقنوات لتفريغ الغرائز الليبيدية بقيم روحية

وثقافية (علاق، 2017، ص 132). وهي تتمثل عند مريدات الطقسين في عقد النية واستخدام التطهير بالماء والحناء لجلب الحظ والسعد، وتدور كلها حول تحقيق الرغبة في الزواج.

المفارقة الرابعة عشر: لا يعد طقس "الكسابة" و"لالّة عيشة البحرية" ممارسة فوضوية بقدر ما يعدان فعلاً جماعياً. فلو قمنا بتحليلهما وظيفيا يمكن أن نتبيّن كيف تتخذ الأنشطة الطقوسية فعاليّة ونجاعة خاصّتين، وتؤدي وظائف كامنة في حياة الجماعة المحلية، لكي تضمن للمريدات نوعا من العلوّ والسموّ لا تستطيع رتابة الحياة اليومية في الحقيقة أن تمنحه لهن دوما. كما تتيح لهن الدخول ولو مؤقّتا في حالات ذهنية سارّة(..) وندرك عندئذ دلالة إقبال الفئات الاجتماعية المختلفة وخصوصا تلك المهمومة بكينونتها ووجودها على حد تعبير جون دوفينيو. وارتباط المرأة بهذا الطقس من الدلائل التي لا بد أن تحرك في المختص النفسي الشعور بحاجة هذه الأخيرة إلى المساعدة والوقوف إلى جانبها، خصوصا وأن العديد من الدراسات والأبحاث الإكلينيكية والملاحظات العلمية أثبتت خصوصية اضطرابات المرأة (علاق، 2017). وبالنظر لفسيولوجيتها ونفسيتها الخاصة، فقد تقع فريسة للعديد من الاضطرابات النفسية، وتكون النتيجة لصالحها؛ ويترتب على هذا الاختلاف بينها وبين الرجل وجود بناء نفسي للمرأة يختلف عن البناء النفسي للرجل"(غانم، 2011، ص. 13). كما تذكر علاق (2017، ص. 137) أن من بين الاضطرابات النفسية التي تعاني منها الفتيات الممارسات للطقس يأتي في المقدمة قلق المستقبل والخوف من العنوسة، وهما يعدان الملمح الأساسي في حياة الأنثى. فالمرأة المقبولة اجتماعياً هي المرأة المتزوجة، والعانس تلاحقها دائما علامة استفهام، ونظرا لأهمية الزواج في نظر المجتمع، فإن الفتاة التي لم تلق "مَكْتُوبْهَا"- أي حظها من الزواج- بعد، تعيش صراعات نفسية واجتماعية يفرضها عليها المجتمع ويلاحقها بها دائما كما تلاحق اللعنة صاحبها، على رأي المثل الشعبي القائل" تْزَوْجي لا يْقُولُو بايْرَة، وَوَّلْدي لا يْقُولُو عَاقْرَة" أي [تزوّجي حتى لا يقال عنك عانس وأنجبي الأطفال كي لا يقال عنك عاقر]. مما يعني أن الزواج الذي تبحث عنه الفتاة العانس هنا يكون محاولة لإسكات القائلين من المجتمع -وهي الفئة التي تلاحق وتنعت كل واحدة لم تتزوج- أكثر مما هو تعبير عن رغبة داخلية تريد الفتاة تحقيقها والتي لا مجال للفتاة سوى أن تكون متزوجة، لأن الزواج ضروري لاستمرار الحياة. كما أن "أسباب طلب الزواج تختلف من فتاة إلى أخرى وذلك باختلاف اعتقادات الفتاة وتكوينها وتنشئتها وغيرها من المحددات الأخرى، بحيث يرى «بومان» أن الناس يتزوجون لعدة أسباب مجتمعة أو لسبب واحد أو أكثر؛ وتتمثل هذه الأسباب إما في البحث عن الحب أو الأمان الاقتصادي، أوالرغبة في حياة المنزل، أو الأمان العاطفي، أو تحقيق رغبة الوالدين، أو الهروب من الوحدة، أو الهروب من أوضاع غير مرغوب فيها في منزل الأسرة، أوتحقيق مركز اجتماعي معين، أو المغامرة والفضول لما في الزواج، أو إكمال نصف الدين (باشيخ، 2014، ص. 129).

2-3 **الاختلافات بين الطقسين:** لم نجد اختلافات كبيرة بين الطقسين واقتصرت على ما يلي:

- **زمن ممارسة الطقس**، حيث يمارس في" الكسَّابة" مرة في السنة فقط أي في بداية ربيع كل عام؛ وفي مقابل ذلك رغم ارتباط طقس "عيشة البحرية " بالمواسم وخصوصا في اليوم السابع من الأعياد الدينية الكبرى أو العاشر من محرّم، إلا أنها أصبحت تمارس عند المرأة المغربية طيلة أيام السنة؛
- تقتصر ممارسة طقس "الكسّابة" في الأصل على النساء الكبيرات في السن قبل أن تنتقل إلى الشابات من اللائي بقين دون زواج، بينما تقيمها في "لالّة عيشة البحرية" العوانس العازبات فقط؛

- **"الكسّابة" طقس لجلب السعد والبركة و "لالَّة عيشة البحرية" طقس لطرد الشر وتنحية المانع أو العاكس**: حيث يختلف الطقسان في النهاية، فبعد إتمام كل خطوات الطقسين، تأخذ الفتاة في "الكسَّابة" العُشْبة الصفراء معها تبركا بها، بينما في "لالَّة عيشة البحرية"، تقوم الزائرة بترك كل شيء وراءها، المشط والملابس الداخلية والمبخرة المكسرة، ولن تبقي إلا لون الحناء على يديها واسمها واسم من كتبته على حائط الضريح حتى يأتي اللقاء الحقيقي، فالأولى تأخذ الفأل الحسن والثانية ترمي بالعاكس والمانع لكي تطرد الشر.

خلاصة

ما يمكننا استنباطه من هذه النتائج أن كلاً من "الكسّابة" و "لالّة عيشة البحرية" تُعدان من الطقوس النسائية. وهما من ابتكار المرأة وموجهة في نفس الوقت للمرأة، ظاهرها احتفال بقدوم الربيع وبدء فترة التجدد والخضرة والخير في الأولى، والاحتفال بالمواسم أو باليوم السابع من الأعياد الدينية الكبرى أو العاشر من محرّم في الثانية؛ وباطنهما محاولة تجديد الأمل للفتاة التي هي في مرحلة الزواج أو من فاتتها المرحلة. وهما تلك القوة المتسلطة التي لا تزال تجذب النساء بمختلف طبقاتهن سواء الثقافية أو الاجتماعية خلفهما، وتحفز استعدادهن لتصديق أي شيء يحكي أو يتحدث عنها حتى وإن كان ذلك غير منطقي وغير عقلاني. وهما من الاستراتيجيات الموسعة للتعبير عن طموحات فردية في الباطن، تسر بها كل مؤمنة بالأسطورتين وممارسة لطقسيهما. ويعتبران تفاوضا اجتماعيا يمثل للمرأة مخرجا من قلق وعبء الحياة اليومية، بل إن التلبس بروح جنيّة المكان أو بطلة "الكسّابة" أو "لالّة عيشة البحرية" من خلال ممارسة الطقسين يعد تساميا لقلق المستقبل والخوف من عدم تحقيق المكانة الاجتماعية التي تخشاها كل فتاة تأخر زواجها. ويشكلان نوعا من الدعم النفسي للتخفيف من ضغط المجتمع. كما أصبحتا البديل أو التعويض الحقيقي للفشل في تفسير الوضع الذي تعيشه المرأة تفسيرا واقعيا، وهما بذلك هروب من واقع لا تستطيع المرأة تغييره بطرق واقعية فتلجأ إلى تغييره بطرق غير واقعية، من خلال ابتكارها لاستراتيجيات للتغلب على القلق المرتبط بوضعيتها كعانس. ويمكن اعتبارهما أيضا علاجاً نفسياً جماعياً وتفاعلا إيجابيا داخل ديناميكية جماعية تلقائية. لكن يقتصر تأثيرهما على الفتاة التي تأخر زواجها، ويتم ذلك من خلال ثلاث مراحل؛ فقبل الطقس ينبغي عقد العزم والاستعداد النفسي وتبييت النية، وأثناء الطقس ينبغي أن يكون هناك حضور فعلي وممارسة لشعائر الطقس والتي تظهر فيها العزم على التغيير والوصول إلى الحل؛ وفي الأخير بعد الطقس تحصل الفتاة على الدعم والطاقة الإيجابية التي تحملهما معها في شكل أمل في التغيير وتحقيق المرغوب فيه؛ وهكذا تبقى أسطورة "الكسّابة" و"لالّة عيشة البحرية" من الأساطير التي تقاوم الزمن من خلال حياة بطلتيهما في ثقافة مجتمعين متقاربين مثل الجزائر والمغرب.

المراجع

ابن منظور (د ت). لسان العرب. (ج 1 / 716). بيروت: دار صادر.

الطبال، ياسر مصطفى (2014). أساطير عالمية مخيفة. كتاب إلكتروني.

باسكون، بول (1986). الأساطير والمعتقدات بالمغرب. ترجمة، المسناوي، مصطفى. مجلة بيت الحكمة، العدد (3)، صص. 83-103.

باشيخ، أسماء (2014). مؤثرات التغير الاجتماعي والواقع الزواجي بالجزائر (سير نحو الفردانية). مجلة جيل العلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد الثالث، أكتوبر، صص. 127-140.

بداك شبحة (2016). المرأة القبائلية والممارسات الطقوسية السحرية من خلال الأسطورة. في المرأة: التجليات وآفاق المستقبل. بحوث علمية محكمة. أوراق مؤتمر فيلاديلفيا الدولي التاسع عشر. 28-30 أكتوبر2014. الأردن: منشورات جامعة فيلاديلفيا.

جعفر، عبد الوهاب (1989). البنيوية في الأنثروبولوجيا وموقف سارتر منها. الإسكندرية: دار المعارف.

جنبوبي، محمد (2006). الأولياء في المغرب: الظاهرة بين التجليات والجذور التاريخية والسوسيوثقافية: حياة وسير بعض مشاهير أولياء المغرب. منشورات كنال أوجوردوي.

الحاج، بلقاسم (2011). النظام الأبوي الجزائري ومظاهر تغير المكانة الإجتماعية للمرأة. دراسة ميدانية وصفية لأهم مظاهر التغيّر الاجتماعي في الوسط الحضري للعاصمة. رسالة ماجستير في علم الاجتماع، كلية العلوم الاجتماعية والانسانية، جامعة الجزائر بن يوسف بن خدة، الجزائر.

سعيدي، محمد (1995). من أجل تحديد الإطار المعرفي والاجتماعي للمعتقدات والخرافات الشعبية -ظاهرة زيارة الأولياء والأضرحة نموذجا-. الجزائر: مطبوعات مركز الأبحاث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية.

ماجدة حسن عبد الهادي جلاله (2001). المعتقدات الشعبية الشائعة في تنشئه الأبناء دراسة مقارنة بين الأمهات الريفيات الأمهات الحضريات. رسالة ماجستير معهد الدراسات العليا للطفولة- الدراسات النفسية والاجتماعية.

علاق، كريمة و مناد، سميرة (2014). "الكسّابة ": من عادات وطقوس استقبال الربيع بمستغانم، دراسة نفسية-اجتماعية عن التراث الشعبي المستغانمي. الموروث الشعبي والهوية الوطنية. دفاتر مخبريّة، مخبر حوار الحضارات، التنوع الثقافي وفلسفة السلم، جامعة مستغانم، الجزائر. 127-167.

علاق، كريمة (2017). الكسابة: الوجه الآخر للعلاج النفسي الجماعي للاضطرابات النفسية للمرأة، دراسة نفسية-إثنوغرافية تحليلية بمدينة مستغانم. مجلة دراسات إنسانية واجتماعية، جامعة وهران محمد بن أحمد- الجزائر، العدد (7)، صص. 119- 140.

غانم، محمد حسن (2011). المرأة واضطراباتها النفسية والعقلية. ط1، القاهرة، إيتراك للطباعة والنشر والتوزيع.

الغدامي، عبد الله (1998). النص الأزرق، هل الرواية رجل أبيض. مجلة فصول، العدد (4)، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

غياث، حياة (2016). ظاهرة العنوسة وتداعياتها النفسية والاجتماعية. مجلة العلوم الاجتماعية والانسانية، جامعة ورقلة، العدد (27)، صص. 207-238.

كاكي، عبد الرحمن (1967). كل واحد وحكمو. الجزائر، المسرح الجهوي لوهران.

هولتكرانس، إيكه (1973). قاموس مصطلحات الإثنولوجيا والفولكلورية. ترجمة: محمد جوهري وحسن السامي. ط2، القاهرة: دار المعارف.

Ait Berri, Aicha (2017). Rituel et Oralité chez les Ait Soukhmanes. Le cérémonial du mariage: une pratique en mutation. Thèse de Doctorat, Discipline : Littératures et civilisations; INALCO.

Auzias, Dominique& Labourdette, Jean-Paul. Casablanca, Ed le Petit futé.

Benchakroun, Siham (2008). Femmes nouées, femmes froides, Croyances et prises en charge traditionnelle des troubles sexuels féminins au Maroc. Faculté de médecine. Casablanca.

Douider, samira (2012). Deux mythes féminins du Maghreb: la Kahina et Aïcha Kandicha Recherches & Travaux, 81, pp. 75-80.

Hermans, *P. (2015).* Rituels de guérison et effet placebo: le cas de Ben Yeffou, in, Le Maroc au présent: D'une époque à l'autre, une société en mutation. Casablanca: ed. Centre Jacques-Berque, Fondation du Roi Abdul-Aziz Al Saoud pour les Études Islamiques et les Sciences Humaines.

Jung, C.G., M-L von Franz, L. Henderson, Joseph, Jolande, Jacobi & Jaffé, Aniela (1987). Man and his Symbols. 17th Ed. U.S.A: Dell Publishing Co. Inc.

Maréchal, B. & Dasseto, F. (2014). Hamadcha du Maroc: Rituels musicaux, mystiques et de possession. Presses universitaires de Louvain.

Moundib, Abdelhani (2016). Culte des saints et santé: les awliya guérisseurs, in, Le Maroc au présent: D'une époque à l'autre, une société en mutation. Casablanca: ed. Centre Jacques-Berque, Fondation du Roi Abdul-Aziz Al Saoud pour les Études Islamiques et les Sciences Humaines.

Radi, Saâdia (2013). Surnaturel et société: L'explication magique de la maladie et du malheur à Khénifra, Maroc, Chapitre VI. Saints et sanctuaires, Rabat: Éd, Centre Jacques-Berque

Radi, Saâdia (2013). Surnaturel et société: L'explication magique de la maladie et du malheur à Khénifra, Maroc, Chapitre VII. La baraka et la *niyya*, Rabat: Éd, Centre Jacques-Berque

Radi, Zakaria (2009). Le chérif et la possédée. Sainteté, rituel et pouvoir au Maroc, L'Homme, N° 190, pp. 27-50.